الثورة الاحد 13 محرم 1432 هـ الموافق 19 ديسمبر 2010م العدد (16839)

مشاهدات وانطباعات
يكتبها / شائف الحسيني

الجزء الثالث
الحلقة الثامنة

ثلاثون يوماً في الصين:

أحياء «بيجين» القديمة... مشاهد لنشاط الإنسان الإنتاجي ومعالم الحضارة والإبداع

□ محاولة لإلتقاط الطعام بالعيدان الصينية

□ عوداً على بدء، كان الحديث عن الأحياء القديمة في مدينة «بيجين» - حي «خوي» على وجه الخصوص - والذي سبقت الإشارة إلى بعض ما هو موجود في شوارع وأزقة يشبه بعضها أزقة أسواق صنعاء القديمة والأحياء القديمة في المدن اليمنية على العموم، والتي تتصف بكونها ضيقة ومرصوفة بالأحجار وتنتشر فيها الحوانيت الصغيرة بكثرة، المحتوية على بعض المعروضات من الأزياء القديمة من ملابس وفضيّات ولؤلؤ وأدوات زينة أخرى، وتتشابه طبيعة الأحياء القديمة في معظم أرجاء العالم تقريباً وتتسم بنفس الطابع، فالبيوت هنا لها هندسة بناء متميزة في شكل وتخطيط الأحواش والمداخل، حيث توجد في كل باب فتحة صغيرة تشبه النافذة يطل منها صاحب المنزل لمعرفة القادم إليه، وكثير من أوجه التشابه مع بقية الأحياء القديمة في أكثر من وجه.

طعام صيني وفق الطريقة الإسلامية.. وطريقة التقديم بالحجاب الإسلامي

عشر قوميات تعتنق الإسلام.. وتعدادها يزيد عن عشرين مليون نسمة

تجوّلنا هنا وهناك في هذه الأسواق التي تعج بالناس، وبالبضائع الصينية التقليدية المعروضة فيها بأنواعها المختلفة حتى تعبت أقدامنا، ولم نعد نقوى على مواصلة التجوال، فقررنا الذهاب لتناول طعام العشاء في أحد مطاعم هذا الحي القديم، وكانت الساعة تشير إلى الثامنة مساءً، ورأينا في أحد الشوارع لوحة معلقة على بوابة مطعم صغير مكتوب عليها باللغة العربية «مطعم إسلامي حلال»، فاستحسنا ذلك وسمّينا الله، ثم دخلنا وجلسنا على إحدى الطاولات نستعرض قائمة المأكولات التي كتبت باللغتين الصينية والإنجليزية، وتتضمن الوجبات التي تقدم والمكونة من اللحوم والأرز والخضار وأنواع من السلطة، وبالمناسبة فإن الخبز ليس أساسياً في المائدة الصينية على غرار ما هو موجود في اليمن وفي غيره من البلدان العربية، فلديهم نوع من الخبز يشبه الكعكة الصغيرة، وهو أبيض مصنوع من الدقيق يشبه العجينة، لأنه ينضج على البخار وليس على النار، ويطلقون عليه خبزاً، ولا يوجد إلا في بعض المطاعم، وعندما تراه لأول وهلة تظنه عجيناً غير مخبوز، كذلك تخلو المائدة الصينية من الجبن، ولا يتناوله إلا عدد قليل جداً منهم، ومعظم المستهلكين له من الجنسيات الأجنبية الأخرى، ويقال إنه لم يظهر في الأسواق الصينية بأنواعه المختلفة إلا في الآونة الأخيرة مع عملية الانفتاح الاقتصادي وتواجد الأجانب في الصين بأعداد كبيرة.

كل شيء في هذا المطعم، كما رأينا، هو طعام صيني وفق الطريقة الإسلامية، ويخلو من لحم الخنزير، وتقدمه نادلات صينيات يلبسن الحجاب الإسلامي، ولا يبدو منهن سوى الوجه والكفّين، وقد قيل لنا إن مالكي المطعم من قومية «اليوغور»، التي تقطن إقليم «تشنجيانغ» في غرب الصين، وهي أكبر قومية مسلمة في الصين، ويقع الإقليم على الطريق المعروف تاريخياً بطريق الحرير، والذي يربط الصين بآسيا والشرق وأوروبا، ويمتد عبر مسافة تتجاوز سبعة آلاف كيلو متر، وتنقل عبره أنواع مختلفة من البضائع، بما في ذلك الحرير والملابس والأواني الفخارية.

وللإقليم حدود مع عدد من الدول، هي روسيا ومنغوليا وأفغانستان وباكستان والهند وكازاخستان وطاجاكستان، ويعتبر من أهم المناطق في إنتاج الفواكه في الصين، حتى أنهم يطلقون عليه «بيت الفواكه»، لإنتاجه كميات كبيرة وأنواع متعددة منها، ويشتهر بوجود ثاني أعلى قمة في العالم - بعد قمة الهملايا - وهي قمة جبل «تيان شنغ»، الذي يبلغ ارتفاعه قرابة ستة آلاف متر عن سطح البحر، وفيه ثاني أكبر صحراء في العالم بعد الصحراء الأفريقية الكبرى، وتسمى «تكلة مكان»، وعندما حدثت فيه الاضطرابات عام ٢٠٠٨م خصصت له الحكومة المركزية في بيجين نسبة (٦:٣٪) من إجمالي دخل المقاطعات الصينية الأخرى، ولمدة عشر سنوات تبدأ من عام ٢٠١٠م، ليلحق بركب التطور الذي تشهده أقاليم شرق الصين، و«هناك قوميات صينية عشر تعتنق الإسلام في الصين، قومية هوي وقومية اليوغور، وقومية الفازاق، وقومية الغرغيز، وقومية الوزبيك، وقومية الطاجيك، وقومية التتار... إلخ، ويزيد تعدادها عن العشرين مليون نسمة»، (مصطفى السفاريني «أيامي في الصين .. تجربة حية لمبعوث دبلوماسي»، صـ ١٤٨، طبعة أولى ٢٠٠٧م طبع في جمهورية الصين «بيجين»).

جاءت إلينا إحدى الفتيات النادلات في المطعم وسجلت الطلب ثم قدمت لنا الطعام مصحوبا بعدد من أعواد الخشب المبروم والمزخرف الذي يستخدمه كافة أفراد الشعب الصيني بديلا عن الملعقة والشوكة، ويتناولون بهذه العيدان الرفيعة حبات الأرز ووجبات الأكل المتنوعة كاملة، وهي تشبه الملقاط، حيث يجمع عودان على أصابع اليد الابهام والسبابة الوسطى ليتسنى التقاط الطعام وقد حاولت استخدام هذه الطريقة خلال وجودي في الصين لكني لم أفلح فالمسألة تتطلب الممارسة وبعض الوقت لاستيعاب كيفية استخدام الأعواد في تناول الطعام وبعدها يصبح الأمر سهلاً وميسراً، وكأنك تتناول الطعام بيدك، واستخدام الأعواد في تناول الطعام هو تراث صيني قديم يمتد لآلاف السنين ومستمر إلى اليوم.

طلبنا ملاعق وشوكات وبدأنا نتناول الطعام وكان يجلس بجوارنا عدد من الأشخاص الصينيين، وفجأة إذا بأحد الجالسين حول الطاولة يطلق صوتا ويبصق على الأرض آثار ذلك المنظر المقزز اشمئزازنا، بينما لم يعره أحد من الجالسين بجواره أو من بقية الجالسين في المطعم أي اهتمام، بل استمروا في تناول الطعام وكأن شيئا لم يحدث، وقد لاحظت إحدى النادلات تقززنا، فجاءت لتقدم الاعتذار لنا قائلةً إن هذه عادة قديمة كانت منتشرة حتى وقت قريب في الصين، ويكثر انتشارها خارج المدن، لكنها انحسرت في الوقت الراهن، ثم كررت اعتذارها لنا.

واصلنا تناول وجبة العشاء، بعد أن أضاف لنا هذا التصرف معرفة جديدة، فقد استوضحنا عن هذه العادة، فقالوا إنها ضمن آفات أخرى كانت سائدة في الفترة الماضية في بعض مناطق الصين، ولأنها عادة مؤذية، وسلوك غير صحي قامت الأجهزة المختصة في الدولة بنشر الوعي في المدن والأرياف بأهمية مكافحة هذه الظاهرة التي اعتبروها آفة ضارة ينبغي استئصالها من المجتمع وأعلنوا الحرب عليها في كل مكان.

ولأهمية هذا الموضوع في رصد التغيرات التي حصلت في الصين، وصولاً إلى مرحلة الرقي والتطور، وإشاعة النظافة في كل مكان، لتصبح ثقافة عامة في أوساط المجتمع الصيني، أقتبس هذا النص من كتاب ألّفه سفير فلسطين الأسبق السيد مصطفى السفاريني تحت عنوان أيامي في الصين (صـ١٢١، ١٢٢) باعتباره عاش هذه التجربة، حيث يقول في كتابه : وبدأت أتحدث إليهم يعني للوفد الفلسطيني الزائر حول التغيرات التي طرأت على هذا الشارع من خلال مقارنة حية بين الماضي والحاضر، مشيراً بيدي إلى الجهة الشرقية من فندق بكين، حيث تنتصب تلك البناية الحضارية الضخمة التي تمتد من شارع «وانغفوجينغ» لتوصله بالشارع الشرقي الموازي له «دونغدان» ليعطي مدخلاً في غاية الجمال والرونق لشارع «وانغفوجينغ»، قلت لهم في سبعينيات القرن الماضي، لا بل حتى الأمس القريب كان هذا المكان عبارة عن مبان أرضية تستخدم كمراحيض جماعية، وكانت هذه المباني الضخمة والمحال التجارية الراقية ليست إلا حوانيت صغيرة متناثرة على قارعة الطريق «قائلاً - والحديث لايزال للسفير -» هذه الساحة الفسيحة كانت مكان تجمع الفلاحين الذين يزورون بكين في أيام العطل والأعياد، فتجد الأوساخ والبول والبصاق وغيره من المناظر والمشاهد غير الحضارية، وبينما أتقدمهم وأتحدث إليهم كدليل سياحي، وفي الأيام الأولى التي يطبق فيها نظام مراقبة النظافة إذا بعجوز في الستين من عمرها تمسك بكتفي الأيسر من الخلف يبدو على وجهها الانزعاج، دهشت حقيقة وسألت عن مقصدها إذا بها تشير بأصبعها إلى ما تبقى من سيجارتي التي ألقيتها على الأرض دون شعور، قائلة التقط السيجارة وارمها في صندوق المهملات... إلخ».

ويبقى السؤال في الأخير بعد تناولنا لهذا الموضوع : إذا كان سكان الصين بهذا العدد الهائل الذي لا يضاهيه سكان أي بلد في العالم قد تخلصوا من هذه الآفة وغيرها، فكيف الحال ببلدان عديدة أخرى لا يزال فيها مثل هذه السلوكيات، البصق في الشوارع، بل وما هو أسوأ منها بكثير لم تتغير ولم يقلع الناس عن تلك السلوكيات السيئة رغم دخول عصر الفضاء المفتوح الذي نعيشة مع ما يزخر به من المدينة والرقي إلى كل بيت؟! وهل التخلص من مثل هذه السلوكيات ينجم عن استيعاب الناس هناك لما يقال، أم هي قدرة الدولة على إنفاذ ما تقول؟!

غادرنا المطعم وأخذنا سيارة أجرة عائدين إلى مقر السكن بعد أن أضفنا إلى معارفنا تجربة جديدة عن هذا البلد الذي يتغير كل يوم تقريباً نحو الأفضل باضطراد، وهو ما لمسناه من خلال سياحة عابرة في الشوارع والأزقة.

□ كان علينا أن نزور قصور الإباطرة الذين حكموا الصين في المدينة المحرمة، لأنه أهم مكان في بيجي يتردد عليه آلاف السياح يومياً من كافة أنحاء العالم، وله في تاريخ الصين مقام عظيم على مدى قرون من الزمن، فكيف نترك ذلك المعلم المهم وهو جزء من تراث الصين، ومن تاريخة القديم والحديث، وقد زرنا ما هو أقل منه أهمية وأبعد منه مسافة، فذهبنا إلى هناك صباح السبت الموافق ٥ يونيو ٢٠١٠م، ووجدنا أمامنا صفاً طويلاً أمام شباك قطع تذاكر الدخول إلى المدينة خليط من كافة الجنسيات.

أخذنا موقعنا في الصف كغيرنا من الزوار، وقطعنا التذاكر، التي يبلغ ثمن الواحدة منها ثلاثين دولاراً أمريكيا تقريباً، وهذه الصفوف لا تنقطع يومياً خاصة في موسم الصيف، حيث يتوافد آلاف الزوار إلى هذه المدينة التاريخية من كل مكان.

النظافة ثقافة عامة في أوساط المجتمع الصيني

□ في بوابة المدينة المحرمة «بيجين»

□ جانب من القصور الامبراطورية في «بيجين»